الموسيقى بين الموضوعية والذاتية

بقلم أمين معلوف

لست ادري اذا كانت الالحان التي نسمعها بقصد او بغير قصد تفعل في نفوس الآخرين ما تفعله في نفسي ، فانني لا اكاد اسمع لحناً يعجبني من الموسيقى الخفيفة او قطعة من رفيع النغم الكلاسيكي حتى يستهويني ما في تلك الالحان من معاني الجمال والتشويق فأروح اردده فترة من الزمن وانا مشغوف بها مفتون بسحرها. لكن شأني مع تلك الالحان كشأن الرجل الذي يقبل على شيء من اشياء الحياة يروقه ، ثم لا يلبث ان يمله بعد ان يستمتع بحلاوته فيطرحه جانباً. وهكذا اتخلى عن الحاني الاولى التي تكون قد عمرت نفسي وبيتي وما حولي مدة لأعود، فآخذ بالحان جديدة ما تلبث هي بدورها ان تتلاشى . وبعد الروية والاختبار، وجدت ان تلك الالحان لم تزل من خاطري كما كنت اظن، بل هي في ذاتي مختبئة لا تتيقظ الا اذا صادفت محركاً يشعرها بوجودها ويفتح لها كوىً تطلّ من خلالها على اسلة اللسان او على رؤوس الأنامل . فالطبيعة في فصولها الاربعة مملوءة بالالحان تحث الانسان على الغناء وتغريه بانغام شتيتة شجية. فللصيف انغامه وللشتاء الحانه وللخريف وللربيع اصواتها ايضاً . والطبيعة هي المحرك الاساسي لما في النفس من شحنات صوتية، وهي بتأثيرها على المزاج تجعل من الانصات الى الانغام الموافقة لطبيعة الحال امراً مفروضاً .

وللشباب ايضاً الحانه كما للكهولة وللشيخوخة الحانها. ولشتى الاحوال النفسية من فرح وبهجة ، وأسى واكتئاب، وفراق ولقاء ، ووداع واستقبال ، وهدوء وصخب ، وانسانية مفعمة بالحب ، واثرة وكلف بالذات ، حظ وافٍ من الانغام المستفيضة المعبرة. على ان الطبيعة هي المنظمة لتلك الالحان تبعث منها ما يوافقها وتلجم بعضها عن الظهور، وذلك بتأثيرها على الانسان من حيث لا يدري . من هنا يمكننا ان نعلل فكرة تلاشي الالحان بأنها ظاهرة طبيعية، وان ما نسميه نسياناً هو في الحقيقة خمود وقتي وانصراف ذهني من شيء الى شيء ولا بد ان تعيده الى الاثر المهمود ظواهر الانسان والطبيعة .

وللتدليل على عنصر المزاج في تقييم الاثر الموسيقي اقول بان النغم الذي تحتويه مثلا قطعة « اضواء المسرح » يذكرني بالفترة التي انعم بها تحت دفء الشمس على الشاطىء الموار في ايام الصيف ويعبر لي اعمق تعبير عن فكرة البحر والسابحين والسابحات اكثر مما تعبر لي قطعة « البحر الهادي » للموسيقي مندلسون التي الفت خصيصاً لتكون المعبرة دون سواها عن موضوع البحر وما يتصل به من بعيد او قريب .

ويتساءل القارىء بعد هذا باستغراب عن الوحدة القائمة في الموضوع بين قطعة « اضواء المسرح » والبحر ، فيجد ان ليس هنالك وحدة ولا انسجام وان الفرق الذي بين البحر والمسرح لأعسر من ان يوحد في لحن من الالحان . ومع هذا استطيع ان اشرح الدافع الذي يقرب لي البحر عندما استمع الى « اضواء المسرح » بالفكرة التالية : ان التلازم بين الموضوع الموسيقي وبين مطـــابقه على الواقع لا يفي بالغرض الذي من اجله يقع التوافق الذهني ، بل التوافق منوط بواقع الانسان ومزاجه وليس للموضوع المنغم ولمطابقه اي تأثير في حصوله . ومعلوم ان التلازم بين موضوع قطعة «البحر الهادىء» والبحر الذي هو مطابقة على الواقع قوي جداً ومع هذا اتلمح فكرة البحر من خلال « اضواء المسرح » لانني سمعت هذه القطعة وانا على الشاطىء . فواقعي المؤيد بالحواس هو الذي جعل التوافق يتم لقطعة لا تـــلازم بين موضوعها ومطابقه على الواقع .

ومهما يكن من شيء فان تلك الظاهرة لا تكون دائماً مسلماً بها على انها التعليل الصحيح لائتلاف الالحان في الخاطر، ذلك ان الاخذ بها سيؤدي حتماً الى اسقاط العنصر الموضوعي في الموسيقى، وهذا مـــا لا يسلم به متذوق. فالموضوعية في الموسيقى وخصوصاً الكلاسيكية منها واضحة جلية ، فنحن نلمحها في مقطوعات باخ ، وبراهمس، وتشايكوفسكي بشكل ظاهر بتقيد هؤلاء بالاشكال الكلاسيكية المعهودة. ونكاد ايضاً نتبعها في المقطوعـات التي وسمتها روح الرومنتيكية بالعنصر الذاتي ووشتها باهواء النفس ونزواتها خصوصاً في السوناتا التاسعة «لبتهوفن»، وفي «افتتاحية اوبرون» لفبير ، ونكاد نتيقنها حتى في « السمفونية الخيـالية » لبرليوز ، وفي « ليالي » شوبان ، ومقطوعات فاغـــنر . فالموضوعية اذاً ظاهرة حتى في اكثر المؤلفات الذاتية عند كبار الكلاسيكيين.

وانه لمن الغبن بمكان ان نرد دائماً الموسيقى الى محور الذات وان نتصرف بالاثر كما نتصرف بدمية لايشاطرنا قسمتها احد.

على ان العنصر الذاتي له دور مهم في احداث التذوق ، علاوة على انه قد يخرج بالانسان في بعض الحالات عن حدود اللحن ، فيحصل له ما حصل لي في تذوقي لقطعة «اضواء المسرح» على المحيط البحري ، محطماً بذلك اساليب الموضوعية منطلقاً في مجالات لا يحدها قيد . اما دور الذات في احداث التذوق فواضح عند اغلبية الناس ، ذلك ان الشعور الداخلي يدفع الانسان الى سماع ما ينطبق تماماً على مقتضى الحال ، فعمله اذاً عمل انتقائي بحت يوافق بين المختار من النغم وبين الحالة النفسية المسيطرة . وللدلالة على ذلك اقول انني ما تلهفت الى سماع « السمفونية السادسة » لبتهوفن الا عندما كنت في الجبل في الصيف الفائت والطبيعة هادئة لا يعكر مزاجها الا اصوات الريف المنطلقة في الاجواء العطرة ، فطوقت بالي للحال انغام السمفونية تنطلق بهدوء لا اثر للعنف عليها وكأنها تعدو في مساحب النغم على جوانح الفراشات الملونة . وانني ما تشوفت الى سماع «السمفونية التاسعة» لبتهوفن ايضاً الا عندما كنت استشعر الطمأنينة والشمول وينتابني شعور غريب قوامه المحبة ، والرحمة ، والانسانية المثلى . وكذلك حالي مع « رقصة المقابر » لسان ساتس ، فانها تطيب لاذني عندما اكون في اسى شديد وكآبة ممضة . اما في حالة الاستقرار النفسي والراحة التامة ، فانني اتحول نحو السمفونيات ذات الحركات الاربع لتسير مع اللحن وانصت بكلية الى التغييرات الآلية ، لا يصرفني شيء عن تتبع الشكل الهندسي ولا يثنيني لحن رئيسي أخاذ عن تقصي التطور النفسي للقطعة . فالسمفونية « السادسة والثلاثون» لموزرت هي خير مثال لهذا اللون من الوان السمفونيات التي تستدعي انتباهاً كبيراً ، وهذا ما لا يتأتى لمن كانت نفسه نقالة تعوزها الوحدة والجمع .

فالعنصر الذاتي اذاً موجود لا مجال الى الشك فيه ، وعمله كما رأينا عمل انتقائي بحت يقتصر على الناحية السلبية دون الناحية البناءة ، وهو يخرج من الانسان ليلاقي الاثر ، بينما يسير العنصر الموضوعي باتجاه معاكس ينطلق من الاثر وينتهي بالانسان . فالموسيقى بحد ذاتها موضوعية صرفة ، اما التذوق الموسيقي فموضوعي ولكن على نحو ذاتي ، وهو بانتقاله من الخارج الى الداخل يتحول من الموضوعية الى الذاتية في ذائقة الانسان .

ولكي يصبح النغم الموسيقي ذاتياً يجب ان يمر الاثر بالطور الموضوعي المعهود . فاذا لم يكن الاثر في الاساس غيرياً لا يمكن ان يرتاح اليه الانسان ويجد فيه بلغته من الفيض الجمالي والتوفيق الايقاعي . اقول هذا وانا على يقين من ان المؤلف الذي يسعى بما عنده من ملكات فنية الى الخروج بالاثر من حدود الغيرية الى الاخذ بموازين ذاتية ظناً منه انه يستطيع بفعله هذا ان يلج مشاعر الغير دون مشقة ، هو مخطىء جد الخطأ ، لان المتذوق لا يمكنه ان يأخذ بالاثر الا بعد ان يزن بميزان المقارنة الابعاد الصوتية والاشكال المعهودة ليقيم بعدها الدليل على صلاحية الاثر او عدم صلاحيته . هذا ما اراد فعله الموسيقي المعاصر سترافنسكي ، فانه نحا هذا النحو الفريد فوفق في بعض الاحيان واخفق في البعض الآخر ، وحسبنا ان نستمع الى قطعته « عصفور النار » لنجد انه كفر بالقيم الموضوعية التي سار عليها اقرانه من مؤلفي اوروبا ، وانه اطلق العنان لنفسه تبني وتهدم في جميع آثاره دون ان يعير اهتماماً كبيراً الجمهور المتذوق الذي راح يعرض بشكل ظاهر عن موسيقاه بعد ان مجتها الاذواق ونفرت منها الآذان . وسترافنسكي في الموسيقى كبيكاسو في التصوير صاحب مدرسة ثائرة تمثل نزوات جيل معين ولكنها ليست لكل جيل .

وهكذا نخلص الى القول ان في الموسيقى وحدة في ما هو موضوعي وما هو ذاتي ، فالحلقة التي تسير فيها الموسيقى واحدة ، ذلك ان ما تفقده القطعة من مقوم موضوعي يكسبه السامع بالمقوم الذاتي ، وهذه هي الحال في الموسيقى الرومنتيكية ، وان ما يفقده الاثر من عنصر ذاتي يكسبه السامع بالعنصر الموضوعي ، وهذا ما نجده في موسيقى كبار الكلاسيكيين . ولكن يجب ان نحتاط من طغيان احد هذين العنصرين على الآخر ، كطغيان العنصر الذاتي مثلاً ، فتفقد القطعة الموسيقية بادرة التقليد والنسج على الاشكال المعهودة في التأليف ، فلا تتم عندئذ مشاركة ، ولا يتم اخذ ، وهذا ما يحل باكثر مقطوعات سترافنسكي وشتنبرغ . فهما يخرجان بالسامع عن حدود القوانين المرسومة دون ان يكون لهما في نقضها فضل المجددين على الاطلاق .

اميل المعلوف